الشاعر الثائر عبد الحميد الديب

مات الشاعر عبد الحميد الديب.. فمن هو عبد الحميد الديب.. ؟

كانت حياة عبد الحميد الديب ثورة على الحياة، وكان لهذه الثورة الفردية كل ما للثورات الجماعية من خصائص ومقومات.

أحس عبد الحميد الديب أنه مظلوم، فقد كان شاعرًا، فنانًا، مرهف الحس، ومع ذلك لم يستطع أن ينال حظه من العمل، كان يظل ليله ونهاره يبحث عن لقمة العيش. فإذا عثر عليها لم يجدها فى وظيفة، أو صحيفة، أو مصنع يقدمها إليه لا تكريمًا لشعره، ولا إعجابًا بمواهبه، ولكن شفقة على ما يعانيه، من فقر وفاقة.

وجد المجتمع قد أغلق دونه الأبواب فإذا طلبه يومًا فمن الباب الخلفى، باب البؤس والشقاء، والمرض.

كان بلا مأوى، بلا أهل، بلا عمل، كان - كما قلت

يوم وفاته - يعيش فى الزمان لا فى المكان.. كان ينام فى الليل لا فى فندق ولا فى بيت.. كان يعمل فى النهار لا فى مكتب أو مصنع!

وكما تتحول الثورة الجماعية من شعور إلى تمرد ومقاومة، تحولت ثورة عبد الحميد الديب إلى تمرد على المجتمع، ومقاومة له، فكان هذا الجنوح فى عواطفه، وكانت هذه النظرة القاسية إلى الإنسانية كلها. لقد أحس أنفاسه تختنق بين براثنها ومخالبها.

وكان يحز فى نفسه أن الناس لا يعطفون عليه لأنه شاعر، وإنما هم يعطفون عليه لأنه بائس، فقير مريض. ومن هنا كان يشعر بالمرارة إزاء الناس جميعًا سواء منهم من يبسطون أيديهم ليعينوه ومن يبسطون أيديهم ليقتلوه.

وقد علل علماء النفس هذه الظاهرة الاجتماعية، ظاهرة العطف على الفقراء والمرضى، بأن النفس البشرية تفزع مما تعرض له. فهى تبذل البر والرحمة للفقير والمريض، فزعًا من أن يصيبها الفقر والمرض.

وقديمًا سئل أحد حكماء اليونان:

لماذا نعطف على الفقراء ولا نعطف على أصحاب المواهب!

فقال: لأن الفقر مرض تنتقل عدواه إلى الناس.. أما الموهبة فهى مرض لا تنتقل عدواه إلى أحد!

وهكذا كان الديب يشعر بأن الناس لا يعترفون بشعره، أو مواهبه، وأنهم يعترفون فقط ببؤسه وشقائه.

وهم بين شامت به، ومشفق عليه، وهو ثائر على الشامت والمشفق معًا.

وقد صور فى إحدى قصائده كيف دخل المسجد، لينام، لا ليصلى وكيف غادره بعد صلاة الفجر إلى الشارع، ومر بالمقهى، فأخذ الجالسون يرمقونه بنظراتهم، بعضهم يقول: عربيد.. والآخر يقول مسكين!

إذا أذنوا بالفجر طرت مسرة ... إلى مسجد فيه أصلى وأضجع
أصلى بأذكار المرائى وقلبه ... وبئست صلاة يحتويها تصنع
أمر على المقهى فأسمع شامتًا ... يمزق فى عرضى وآخر يشفع
وقد ساء ظنى بالعباد جميعهم ... فأجمعت رأيى فى العداء وأجمعوا

وهو ينطلق ليلًا ونهارًا. يسعى إلى تحقيق أمله ورجائه.

فيجد فى كل طريق مصرعًا لآماله، وخيبة لرجائه فيصرخ :

أذله الدهر لا مال ولا سكن ... فتى تزيد على أنفاسه المحن
إذا سعى فجميع الأرض قبلته ... وإن أقام فلا أهل ولا وطن
ثيابه - كأمانيه - ممزقة ... كأنها وهى حى فوقه كفن
كأنه حكمة المجنون يرسلها ... من غير وعى فلا تصغى لها أذن

وينتهى به سعيه إلى غرفة يسكنها وإذا هو وحده كل ما فيها من أثاث، ويناجى ربه بأبيات تنبض مرارة وثورة :

أفى غرفتى يارب أم أنا فى لحد ... الا شد ما ألقى من الزمن الوغد
لقد كنت أرجو غرفة فوجدتها ... بناء قديم العهد أضيق من جدى
فاهدأ أنفاسى يكاد يهدها ... وأيسر لمس فى بنايتها يردى
أرى النمل يخشى الناس إلا بأرضها ... فأرجله أمضى من الصارم الهندى
تساكننى فيها الأفاعى جريئة ... وفى جوها الأمراض تفتك أوتعدى
ترانى بها كل الأثاث فمعطفى ... فراش لنومى أو وقاء من البرد
جوارك يا ربى لمثلى رحمة ... فخذنى.. إلى النيران لا جنة الخلد

وهو ينظر إلى أمته فيراها قد احتضنت الجاهل، والدعى، والمغرور وتركته كمًّا مهملًا، بل وجدها لم تحسه، ولم تشعر به، فيثور :

يا أمة جهلتني وهي عالمة … أن الكواكب من نوري وإشراقي
أعيش فيكم بلا أهل ولا سكن … كعيش منتجع المعروف أفاق
وليس لي من حبيب في دياركمو … إلا الحبيبين أقلامي وأوراقي
لم أدر ماذا طعمتم في موائدكم … لحم الذبيحة أم لحمي وأخلاقي
بين النجوم رجال قد رفعتهمو … إلى السماء فسدوا باب أرزاقي

وتتتابع الأيام ، وتجرى وتركض ، وهو واقف مكانه ، يلهث إعياء وشظفًا سواء عنده المواسم والمآتم. ويذهب فى عيد الأضحى إلى بلدته فى مديرية الغربية، وينزل فى بيته القديم ، فيجده قد لقى المصير الذى لقيه الشاعر. . لا شىء فيه إلا البؤس والشقاء والحرمان وذكريات غابرة. وظن من فى القرية أن الذيب المغترب قد عاد إلى بيته بالعز، الغارب. وإذا هو يبكى. وإذا الدار تبكى معه.

مروا على الدار يوم العيد ضيفانا … يستمطرون نداها كالذى كانا
والدار لما رأتهم مقبلين لها … تعاورت فى البكا أهلًا وبنيانا
ليت العباد كلاب إن كلبتنا … لما تزل لحفاظ الود عنوانا
تحملت قسطها فى البؤس صابرة … لم تشك جوعًا ولم تستجد إنسانًا

obeikandi.com

وقد قال فى مثل هذه المناسبة يخاطب أهله : !

يا معشر الديب وافى كل مغترب إلا غريبكمو فى مصر ما بانا
ذبحتمو الشاة قربانًا لعيدكمو والدهر قدمنى للبؤس قربانا

وظل عبد الحميد ثائرًا على المجتمع يناصبه العداء، ويواجهه نقمة بنقمة.

وكانت ثورته تهدف إلى خلق مجتمع يجنى رأسه للفنان، لا لصاحب السلطان، ويحنو على صاحب الموهبة لا على صاحب العاهة !.

الساخر بالحياة..

وأخيرًا مات برنارد شو بعد حياة دامت أربعة وتسعين عامًا. وبرنارد شو كاتب فى جميع اللغات، فقد انتقل أدبه الجميل إلى كل لغة حية واحتل فيها مكانًا مرموقًا. وهو فنان موطنه الأصلى إيرلندا، وله بعد ذلك فى كل بلد وطن، ومسرح وجمهور !.

ولد برنارد شو فى العام نفسه الذى ولد فيه أوسكار وايلد وفى البلد نفسه - إيرلندا - وكان كلاهما صاحب

مذهب وصاحب أسلوب. وكانا صديقين برغم تباين نظرتهما إلى الحياة.

كان أوسكار مشغوفًا بأن يحيا كل دقيقة بحدة، وعنف. فعصفت به الحياة وهو فى الرابعة والأربعين؛ وكان شو راغبًا عن الحياة ساخرًا بها هادئًا فى استقبال أيامها، فأعطته أربعة وتسعين عامًا!

عاش أوسكار كل دقيقة من حياته القصيرة، عاش بالعرض..

وعاش برنارد بعض حياته المديدة عاش بالطول!

ترى أيهما قد عاش حقًا؟ وأيهما يا ترى سيعيش فى التاريخ أكثر من صاحبه؟ أوسكار صاحب الأسلوب الحاد العنيف اللاذع الصريح فى جرأة وطيش.. أم شو صاحب الأسلوب الساخر الذى لا تعوزه الصراحة أحيانًا وتعوزه الجرأة والطيش فى كثير من الأحيان؟!

كان شو ساخرًا بالحياة.. وما أكبر سخرية الحياة منه حين أعطته، عمر القرون.. لقد استوى الآن فى مثواه مع من ماتوا فى عمر الزهور!

قال له أحد الصحفيين : إننى أتمنى أن أعيش حتى أراك فى سن المائة، فنظر إليه شو مليًا ثم قال : ولم لا ؟ ! إن صحتك على ما أرى تسمح بتحقيق هذه الأمنية !

وزار بعض المقابر فوجد على أحد الأضرحة هذه العبارة : هنا يرقد السياسى الشريف فلان، فقال : هل توجد أزمة مقابر حتى يدفنوا السياسى والشريف فى قبر واحد ؟ !

واقترحت عليه إحدى السيدات أن يتزوجها فإذا أنجبا طفلا ورث جمالها هى وورث عقل شو..

فقال لها : وماذا نصنع إذا ورث رجاحة عقلك وورث جمالى !

كان شو يعتقد أنه سيحيا ٣٠٠ عام. ما أكبر تواضعه ! فسوف يحيا آلاف السنين لا فى الدنيا، ولكن فى التاريخ، وهذه هى الحياة !

الدموع لا تكذب !

أمضيت الليلة فى قراءة أشعار نظمتها خلال عشرين سنة. كل مقطوعة من هذه الأشعار تمثل تجربة دخلتها وبقيت فيها،

كنت ألمح خلال الكلمات كل ما رأيته، وعشته، وأحسسته، عندما نظمت هذه المقطوعة أو تلك، بعضها استطاع أن يعبر بصدق عن شعورى، وبعضها عجز عن التعبير الصادق فانحرف عن الحقيقة تحت ضغط الوزن، أو حكم القافية!

ماذا أسمى هذه المقطوعات التى خانتنى فيها التعبير؟ هل أسميها شعرًا عذبًا تطبيقًا للمثل العربى القديم «أعذب الشعر أكذبه»؟ ولكنى لا أومن بصدق هذا المثل. بل إنى أرى أن الشعر مثل أى فن إذا لم يكن صادقًا فهو هباء.. هل أسميه نظمًا؟ ولكن ما قيمة النظم، إذا لم يكن له دافع وهدف من الواقع، والشعور، والتفكير؟ ما جدوى الاهتمام بإطلاق اسم عليه، أو الاحتفاظ به دون تسمية؟

ولم تكد هذه الخواطر تملأ رأسى حتى بادرت بتمزيق أشعارى الزائفة، وأبقيت على الشعر الذى أعرف أنه نبع من ذاتى، وتجاوب مع الواقع الذى عشته.

إن أكثر الشعر الذى احتفظت به، يفيض بالدموع ومن أجل هذا كان صادقًا فليس أصدق من الدمع. إنك تستطيع أن تقول كلامًا جميلاً مقنعًا، يشبه الصدق، وأنت كاذب..

وتستطيع أن تخضع ملامحك، وإشاراتك، وحركاتك للحزن والأسى، وأنت لا تحس حزنًا ولا أسى! وتستطيع أن تضحك ملء فمك وأنت حزين..

أما الدموع فهى لا تكذب، ولا تجاريك فى كذبك.. إنك لا تستطيع أن تسيلها من عينيك إلا إذا مس الحزن قلبك.. والدموع يبعثها الألم، وهى وحدها التى تخفف الألم!

توفيق الحكيم..
بقلم توفيق الحكيم!

كان توفيق الحكيم فيما مضى معروفًا بأنه عدو المرأة والفقر والبرد.. وقد أصبح الآن عدو الفقر والبرد ليس إلا! ولأنه يخشى البرد تراه دائمًا يحكم إغلاق النوافذ والأبواب ولا يعرض أى جزء من جسمه للهواء حتى فى أشهر القيظ الشديد!.. ولأنه يخشى الفقر تراه دائمًا يحكم إغلاق جيوبه على ما فيها من دفاتر شيكات أو بوالص تأمين، وعلى ما فيها من محفظة نقود، وإن كانت هذه المحفظة خالية من النقود!

وليس معنى هذا أن توفيق الحكيم لم يصب بالبرد فى حياته، فما أكثر ما أصيب بالبرد على الرغم من تدثره بالملابس الثقيلة صيفًا وشتاء!

وليس معنى هذا أيضًا أن توفيقا لم يتعرض للفقر وشظف العيش، فإن حياته حافلة بتجارب قاسى فيها الأهوال بسبب قلة النقود.. هكذا هو يقول!

وذكر لى توفيق الحكيم أنه برغم شدة حذره من المرض يمرض كثيرًا. وبرغم خوفه من الفقر ما زال فقيرًا.. ويسألنى: ما رأيك فى هذا؟

وقلت له: هناك حكمة تقول: الناس من خوف الفقر فى فقر.. وتستطيع أن تضيف إليها: والناس من خوف المرض فى مرض.. فلا تخش المرض تنج منه. وإذا أنت لم تخش الفقر تصبح غنيًا! فضحك وقال: قصدك أصبح غنى النفس..؟ هذا الغنى موجود سواء كان المال موجودًا أو غير موجود!

وكانت هذه الدردشة لمناسبة انقطاعه عن السهر فى دار «أخبار اليوم»، وكان قد اعتاد أن يسهر معنا ليلة فى

الأسبوع، ثم انقطع عن السهر، وقال إنه أصبح لا يسهر إلا فى النهار حتى لا يتعرض للبرد.. وقد سهرت معه هذا النهار فعلا، فى دار صديقنا محمد حسنين هيكل.. وبعد انتهاء الجلسة أو السهرة النهارية، انطلقنا معًا إلى الشارع وأخذنا نتحدث عن آثاره الفنية، وأبديت له إعجابى بكتابه زهرة العمر. لأن هذا الكتاب يرسم ملامح عبقريته، ويلقى الضوء على أصولها ويحلل كل قطرة دم، ونبضة عرق، وخلجة نفس والتفاتة ذهن فى توفيق الحكيم الفنان، ووافقنى على هذا الرأى. وأخذ يحلل كتبه وقصصه ومسرحياته. فرفع بعضها إلى القمة، وألقى ببعضها فى الهاوية. وقال إن مصيبته الكبرى أن ما يعجب الناس من آثاره لا يعجبه. وما يعجبه لا يعجب الناس!

واقترحت عليه أن يقوم بتأليف دراسة عن آثار توفيق الحكيم. فيتناولها بالنقد، والملاحظة، والهجوم.. وستكون هذه الدراسة ولا شك عملا أدبيًّا ضخمًا، وأشرت عليه أن يسميها توفيق الحكيم بقلم توفيق الحكيم!

ولكن توفيق لم يتحمس للاقتراح، واكتفى بأن هز رأسه وقال: اقترح ذلك على طه حسين والعقاد؟

فقلت : هل أقترح عليهما أن يؤلف كل منهما كتابًا فى نقد توفيق الحكيم ؟

فابتسم بصوت مسموع وقال : اقترح عليهما أن يؤلف كل منهما كتابًا فى تحليل آثاره هو: فتقرأ العقاد بقلم العقاد، وطه حسين بقلم طه حسين . .

أنا شخصيًا أتمنى ذلك !

ذكرى ناجى

لم أستطع أن أحضر الاحتفال الذى أقيم اليوم تخليدًا لذكرى الشاعر الدكتور ناجى. فقد اضطررت إلى مغادرة القاهرة، لظرف خاص مفاجئ.

لا أدرى ماذا حدث فى الاحتفال . . لقد قرأت البرنامج فوجدته عامرًا بأسماء الخطباء والشعراء والمفكرين، ممن عرفوا ناجى الشاعر الإنسان وعاصروه، ودرسوا حياته الأدبية والاجتماعية. لا شك أنهم جميعًا أجادوا فى الإشادة بذكره، وشعره، ولا شك أنهم بكوه أحر بكاء. ولكن لا أدرى هل

وقفوا فى تخليده عند هذا الحد، أو تجاوزوا ذلك إلى إجراءات عملية تخليد ذكرى هذا الشاعر الغنائى العاطفى؟

يجب لتخليد ذكرى ناجى جمع أشعاره كلها، واختيار الشعر الغنائى منها، وطبعه فى ديوان مستقل، لأن هذا الشعر بالذات تفجر من قلب ناجى، وإنك لتلمح فى كل قصيدة من قصائده الغنائية العاطفية، بصمة أعصابه، وتوقيع دمه!

أما أشعار التأملات والظنون والحيرة والرثاء فتطبع على حدة فى ديوان آخر.

لقد كان ناجى شاعرًا ملتهب الأعصاب مشبوب العاطفة، يغنى آلامه، ويشدو بأحزانه، وفى مجموعة شعره لوحات عاطفية أحب أن أوجه إليها أنظار الملحنين.

فى ملحمته «الأطلال» أكثر من عشر قطع تفيض شعورًا وصورًا وأخيلة.

اقرأ، بل اسمع:

أنت حسن فى ضحاه لم يزل ... وأنا عندى أحزان الطفل
وخيوط النور من نجم أفل ... وبقايا الظل من ركب رحل!

واسمع:

أين منى مجلس أنت به فتنة تمت سناء وسنى
وأنا.. حب وقلب ودم وفراش حائر منك دنا
ومن الشوق.. رسول بيننا وندیم قدم الكأس لنا
وسقانا. فانتفضنا لحظة لغبار آدمى مسنا!

وقد سبق أن قام المرحوم الدكتور إسماعيل أدهم بدراسة عن شعر ناجى.. ويمكن إعادة طبع هذه الدراسة، وتأليف لجنة من الشعراء والكتاب تتولى وضع دراسة تحليلية شاملة للدكتور إبراهيم ناجى الشاعر والكاتب والطبيب، وتسجل قصة حياته منذ كان طفلا يترنم بالشعر فى درس الحساب.. فيضربه مدرس الحساب! إلى أن لفظ آخر أنفاسه وهو يكشف فى عيادته الخاصة عن قلب أحد مرضاه.. ومات الطبيب وعاش المريض!

احتجاب الصحفيين

الصحف فى إجازة لمناسبة العيد، احتجبت عن الناس اليوم، وستحتجب غدًا.

لماذا لا يحتجب الصحفيون أيضًا، كما احتجبت

صحفهم.. ؟ لماذا لا يريحون الناس منهم، يومًا أو يومين؟

أعجبتنى هذه الفكرة، واعتزمت أن أنفذها، فقررت ملازمة البيت طول النهار والليل..

تناولت غدائى، واستلقيت على الفراش، أتمطى، وأتثاءب، أطرد اليقظة باصطناع النوم.. وأطرد النوم باصطناع اليقظة.. ولم أحاول أن أقرأ أو أكتب أو أفتح الراديو، أو أتحدث فى التليفون.. وفجأة وجدتنى أنظر إلى غير اتجاه، شارد الفكر، مفتوح الفم.. أشبه بمجنون، أو مجذوب، أو مليونير سفيه.. ! ولم أطق الجنون ولا الانجذاب، ولا المليون جنيه التى تسبب السفه.. فارتديت القميص والبنطلون، وأخذت أتمشى فى البيت، لاشعر بأنى لا أزال إنسانًا عاقلا متحركًا !

ودق جرس الباب، وقبل أن أنبه من معى إلى أنى لست هنا.. كانوا قد استقبلوا الزائر الذى دق الجرس، وقالوا له إنى هنا.. !

وكان الزائر كريما فى تبذير وقته معى.. فقد دامت زيارته أربع ساعات.. ! كان يحدثنى عن أشياء لا أفهمها، حدثنى

عن الزراعة وأثر تقلبات الجو فى المحصول الزراعى.. حدثنى عن تربية المواشى وكيف يستطيع الإنسان بماشية واحدة أن يؤلف ثروة طائلة.. حدثنى عن عظمة مأمور المركز الجديد، وما يمتاز به من أخلاق كريمة، وأنه على عكس المأمور السابق الذى كان شرسًا، ويحب الأذى..!

والزائر الكريم بمت لى بصلة قرابة، وقد جاء القاهرة لتمضية يومين ابتهاجًا بالعيد، وسألته: أين أمضيت اليومين؟

فقال: أنا جئت من القطار إليك. وسأبقى غدًا لأزور المشايخ وأقرأ الفاتحة لأولادنا وأحبابنا، وبعد غد أعود إلى البلد بمشيئة الله.!

وقلت له: ألم يكن فى استطاعتك أن تقرأ الفاتحة وأنت فى بلدك..!

فقال: الحقيقة أن القاهرة أوحشتنى.. لى سنتان لم أرها، وكنت قبل ذلك أجيئها فى العام مرتين..

- وماذا كنت تصنع فيها..؟

قال: كنت أزور المشايخ وأقرأ الفاتحة لأولادنا وأحبابنا..

وعقب قائلا : سمعنا ونحن فى البلد أن القاهرة تغيرت كثيرًا عن زمان.. فهل هذا صحيح..؟

وقلت له : إن القاهرة التى تعنيها وتحن إلى رؤيتها لا تزال كما هى.. لم تتغير فى شىء..؟

وحاولت أن أغريه بالانصراف.. فأغمضت عينى وأطرقت برأسى إلى صدرى كمن يريد أن ينام فقال لى :

- أنت راح تنام والا إيه..؟ الساعة لا تزال ١٠ والمعروف عندنا أن الصحفيين تعودوا أن يسهروا حتى الصباح..

وقلت له : إن الصحف فى إجازة ونحن نسهر لنعمل فيها، وما دامت الصحف لا تصدر فإننا نمنح أنفسنا إجازة من السهر..!

وفهمت منه أنه يريد أن يقضى معى أكثر فترة من الوقت، إلى أن يجىء موعد صلاة الفجر فيؤدى الصلاة فى سيدنا الحسين، ومن هناك يبحث عن سكن أحد أقربائه لينزل ضيفًا عليه.. وسألته : لماذا لا يبحث عن سكن قريبه هذا منذ الآن.. فقال : الصباح رباح، والنهار له عيون..!

وقلت له : لماذا لا تذهب إلى فندق نوم وحالتك تسمح بهذا والحمد لله ؟

فضحك وقال : بعدما شبنا.. عاوزنا ننام فى اللوكاندات والعياذ بالله ! اللى ما عملناها واحنا شباب.. !

وعدت لمثلث دور النائم، فقال لى :

- انت عامل نايم.. ؟ !

وقلت له : دانا عامل صاحى.. ! أنا نايم فعلا.. !

ولما غادر البيت، لزمت غرفتى، وحاولت أن أنام. ولكن أحاديث الرجل وزيارته الكريمة، أطارت النوم من جفنى وظللت أقرأ حتى الصباح.. وهكذا لم أستطع أن أمنح نفسى إجازة يومًا واحدًا.. لا من الناس، ولا من الأرق.. !

لغة الأغانى..

سمعت للأستاذ الدكتور طه حسين حديثًا فى الراديو عن الشاعر المصرى إسماعيل صبرى. وقد أشار إلى ما فى شعر صبرى من رقة وعذوبة وجمال. وتمنى لو أن الملحنين المصريين

التفتوا إلى هذا الشعر، وجعلوا منه مقطوعات غنائية، تحل محل السخف الذى نسمعه كثيرًا أو قليلا فى هذه الأيام!

وليس الدكتور طه وحده بالثائر الوحيد على لغة الأغانى، فكثيرون ثائرون على هذه اللغة، وهم يرمونها بالتبذل والإسفاف. وأحب إنصافًا للتاريخ أن أقول فى غير تحفظ، إن لغة الأغانى اليوم، أرقى وأسمى من لغة أغانى الأمس. بل يمكن أن يقال إن الأغنية الشعبية بلغت من حيث الصياغة الفنية، والمضمون، وطريقة نقاوة الموضوع ما لم يبلغه الشعر الفصيح فى أزهى عصوره. وأنا أطالب الدكتور طه وجميع الثائرين على لغة الأغانى أن يتابعوا تطور الأغنية المصرية وكيف كانت تتضمن مثلا: «شفتى بتاكلنى أنا فى عرضك» و«ميلتى بختى فى الحب يا أختى»! و«قدك أمير الأغصان» إلى غير ذلك من عبارات سقيمة تافهة.

كانت هذه لغة أغانينا بالأمس، ولقد تطورت الأغانى حتى صارت مقطوعات شعرية، ترسم صورًا فنية كاملة، تمتاز بالجمال، والعذوبة، والوضوح.

لست أزعم أن الأغانى كلها أصبحت كذلك، ولكنى

أقول - دون أن أتجاوز الحقيقة - إن تسعين فى المائة من الأغانى التى ترددها مطرباتنا ومطربونا تمثل أرق أسلوب للأغنية العاطفية.

ولكن الثورة على الأغانى لا تقف عند حد لغتها بل هى تتجاوزها إلى الموضوع، وقد بدأ هذه الثورة الأستاذ سامى داود وتابعها واستمر فيها الأستاذ حسن إمام عمر، وكلاهما يأخذ على الأغنية المصرية أنها لا تزال ترزح تحت عبء الذل والهوان، وتتحرك فى إطار اللوعة والهوى، وأنا أوافق الصديقين على أن الأغنية المصرية يجب أن تعبر عن الحياة، وليس معقولا أن حياتنا كلها صبابة، وشكوى، وبكاء على الأحباب. ففى حياتنا تمرد على الفقر والحرمان، وفى حياتنا كفاح فى المصنع والمزرعة. وفى حياتنا مقاومة للحروب، واستجابة للسلام، وفى حياتنا كما فى كل حياة، وفاء وغدر، وخير وشر، ونور وظلام، وأضواء وظلال، وثورة وهدوء.

ولكن من المسئول عن تقصير أغانينا؟ هل هم الشعراء؟ لا أظن فنحن نقرأ لهم شعرًا يمثل الحياة من جميع جوانبها وزواياها، ولا نسمع هذا الشعر يغنى إلا إذا كان يصور جانب الحب وزاوية الألم؟

هل المطربون هم المسئولون؟ ولكن هؤلاء - فى الغالب - لا يؤدون الأغنية إلا إذا كان لها مكان فى الفيلم، أو فى برنامج الإذاعة؟

المسئولون فى رأيى عن هذا التقصير هم مخرجو الأفلام ومنتجوها ولجنة اختيار الأغانى فى الإذاعة.

وأبادر فأقول إنى لا أريد أن تصبح كل أغانينا صورًا وصفية للمصانع والمزارع والشوارع، ولكنى أريد أن تكون تعبيرًا صادقًا عن الكفاح فى المصنع، والمزرعة، والشارع، وليس معنى ذلك أن تلغى الأغانى التى تعبر عن المشاعر الإنسانية الثابتة، مشاعر الألم والحب. فنحن فى حاجة إلى هذه الأغانى، حاجتنا إلى المصنع نفسه، والمزرعة نفسها!

مولد.. ووفاة!

كان رأسى يدور حول لا غاية ولا هدف، وأنا أمشى فى فناء محطة القاهرة بين مئات دارت رؤوسهم مثلى.. كنا نودع صديقًا من عالمنا ونشيعه إلى عالم آخر!

وانهالت انفعالات الحزن والحيرة والتساؤل على نفسى..

وتذكرت كيف احتفلنا منذ سنوات بعيد ميلاد صديقنا.. وكيف نحتفل اليوم بوفاته؟

كان احتفالنا بعيد ميلاد حسن الأعور فى الباخرة «أريبيا» عام ١٩٤٦ أو ٤٧ لا أذكر بالضبط. وكان قد أقام فى الباخرة بضعة أيام، يلتمس الراحة والبعد عن جو البيت، وحل عيد ميلاده وهو فى الباخرة، واقترح عليه أحد أصدقائه أن يقيم احتفالا، فقال: نحن صعايدة ولا نعرف مثل هذه العادات. وأقسم الصديق أن يقيم فى الباخرة حفلة لم يعرف مثلها أحد قبل حسن الأعور.. وبر الصديق بقسمه. فقد حضر الحفلة عشرون من أصدقاء حسن بينهم الدكتور عبدالوهاب مورو، والدكتور حسين عرفان، والأساتذة توفيق الحكيم، وعبدالوهاب الشريعى، وقاسم الشريعى، والسيدة أم كلثوم، والأستاذ محمد عبد الوهاب، والمرحومة الآنسة كاميليا. وأشاع حسن الأعور بين الموجودين أنى معجب بجمال كاميليا. وأخذ يداعبنى بقفشاته، ويسخر من ذوق.. وأخرجنى جو السهرة عن هدوئى فنظمت أبياتًا من الشعر وجهتها إلى كاميليا أذكر منها هذا البيت.

إن بعض الجمال يذهل قلبى عن ضلوعى. فكيف كل الجمال

وتطوع توفيق الحكيم بترجمة أبيات الشعر إلى اللغة الفرنسية.. لتتمكن كاميليا من فهمها وتذوقها، وتولى عبدالوهاب تلحين الأبيات وقد حفظتها أم كلثوم فى الحال وغنتها، وظل عبدالوهاب ممسكًا العود لأم كلثوم، وظلت أم كلثوم تغنى حتى مطلع الفجر!

ما أكثر الابتسامات، والضحكات. وانتفاضات المرح والنشوة التى بعثها فينا احتفالنا بعيد ميلاد صديقنا.

واليوم - بعد ثمانى سنوات أو أكثر - استحالت هذه الابتسامات والضحكات دموعًا حارقة، واستحالت انتفاضاتنا المرحة النشوانة صواعق انقضت على نفوسنا ونحن نستقبل جثمان الصديق من القطار العائد من الإسكندرية ونضعه فى القطار الذاهب إلى المنيا.. إلى العدم!

قسوة الحرمان فى حياة أنور وجدى

كنت فى طريق إلى دار أحد أصدقائى فى الزمالك، وكان معى الفنان محمد عبد الوهاب. فأشار إلى «فيلا» أنيقة وقال لى: هذه هى «الفيلا» التى كان المرحوم أنور وجدى قد

اشتراها قبيل وفاته وأعدها لسكنه وقد مات رحمه الله قبل أن تطأها قدماه !

وفى المساء قابلت الأستاذ جليل البندارى أمام وزارة الأوقاف، وكان يحمل ورقة وقلمًا فلما رآنى أخفى الورقة فى جيبه وصافحنى بيده وسألته عن الورق الذى أخفاه وهل يتضمن أغنية جديدة. أو قصة سينمائية أو عقدًا بينه وبين فنانين أو مقالا صحفيًا؟ فجليل البندارى مؤلف أغانى وقصصى ومنتج سينمائى ومحرر فى دار «أخبار اليوم» وانفتح فم جليل عن ابتسامة أو تكشيرة لا أدرى!! فمن العسير أن تعرف تكشيرة جليل من ابتسامته... إلا إذا قال لك بصراحة هذه تكشيرة وهذه ابتسامة !

وفهمت مما قاله جليل أنه حزين، وروى لى أنه كان يسجل فى الورقة التى دسها فى جيبه معلومات عن أنور وجدى.

وأردت أن أضيف إلى معلوماته أن الفيلا التى بناها أنور ليسكنها لم يدخل بابها.. فقال لى : بل إن هذه العمارة التى دفع فيها معظم ثروته والتى جذبت إليه عيون الحاسدين لم

يدخلها وهى كاملة البناء.. ثم قال: هل تعلم أن أنور صاحب هذه العمارة. وصاحب فيلا الزمالك لم يجد بعد موته غرفة يبيت فيها جثمانه إلى الصباح.. لقد ظل جثمان أنور فوق الرصيف فى حراسة موظف عنده يدعى «ليون»..

واستطرد يروى القصة:

على أثر وصول الطائرة التى تقل جثمان أنور وجدى وتقل قرينته السيدة ليلى فوزى تجمع الناس حول ليلى، وتركوا الجثمان فى حراسة الخواجة «ليون» وجاء أهل أنور، وصحبوا ليلى معهم فى عربة وأخذوا يتحسسون جسدها بأيديهم للاطمئنان على صحتها الغالية... وأكدت لهم ليلى أنها لا تحمل مرضًا... ولا تحمل لهم حقدًا... ولا تحمل أى شىء!

وذهب ليون بالجثمان إلى مكتب أنور فوجده مغلقًا، وذهب إلى البيت فوجده مغلقًا. فبقى مع الجثمان فوق الرصيف. حتى الصباح، ثم استقل عربة إلى المقابر ولم يكد أهل الفقيد يصلون إلى المقبرة حتى جاءهم من يقول إن مندوب إدارة التركات قد وصل إلى مكتب أنور، فترك أهله المقابر وعادوا

إلى المكتب ليقابلوا مندوب التركات!

وتولى ليون وحده دفن الجثة هو وبعض أصدقاء أنور ممن ليس لهم فى تركته أدنى نصيب..!

كم لقى أنور وجدى.. من قسوة الحرمان.. عاش يكافح الفقر والإخفاق، فلما أثرى ونجح أخذ يكافح المرض والموت.. إلى أن مات محرومًا..

العمارة التى شيدها لم يستمتع بها، والفيلا التى اشتراها لم يسكنها، والمال الذى جمعه بصحته وحياته لم ينفق منه إلا على مرضه وموته..

ما أعجب حكمة القدر!.. عندما نستطيع الحياة لا نجدها.. وعندما نجدها لا نستطيعها!!

الإمام المراغى وحافظ إبراهيم

حضرت الاحتفال بذكرى الإمام المراغى فى داره بحلوان. لقد أحببت هذا الرجل بعقلى وقلبى. أحببته إنسانًا، وأحببته رجل دين.

كان زميلا لوالدى. فعرفته وأنا طفل صغير. وكانت طلعته تبهرنى. وكنت أجد راحة كبيرة فى الإصغاء إليه، وهو يتحدث فى أشياء لا أفهمها ولا أعيها. كان صوته ساحرًا جذابًا.

ولما كبرت، وأصبح فى استطاعتى أن أدرك وأعى، تبدلت نظرتى إلى كثيرٍ من الناس والأشياء، ولكن نظرتى إلى الشيخ المراغى لم تتبدل. فظللت مبهورًا بشخصيته، وكان صوته وهو يتحدث فى المسائل العامة، أو يلقى أحاديثه الدينية، يأخذ أذنى، ويخطف سمعى.

وكان ـ كلما لقينى ـ يسألنى عن آخر ما قرأته فى الشعر العربى.. ثم يعقب على ذلك بإنشاد أبيات لأبى العلاء أو المتنبى أو شوقى ويقول هل هناك ما هو أجمل من الشعر؟!

وقد كان المراغى أديبًا يحب الشعر والشعراء. وقد تعلق به الشاعر حافظ إبراهيم تعلقًا شديدًا، وكان أجمل أوقات حافظ، هذه الساعات التى يقضيها مع الشيخ المراغى فى داره بحلوان يتناقش معه فى المسائل الدينية والأدبية، وكثيرًا ما كان حافظ يداعب الشيخ. وكان الشيخ يتقبل دعاباته ويحرضه على المزيد منها.

طلب حافظ وهو فى دار المراغى زجاجة كولونيا. فأحضر له الشيخ زجاجة. وقال وهو يقدمها إليه: خذها وأنت وبختك. يا ترى ماركة إيه دى؟

فقال حافظ على الفور:

لازم مية القسيس؟!

واشترى الشيخ المراغى خمسة من الديوك الرومى. ولم يكد الصباح يطلع عليها حتى ماتت فأرسل حافظ إلى الشيخ كتاب تعزية قال فيه:

رحم الله خمسة من ديوك للمراغى عوجلت بالفناء
فلو أن الأستاذ خير فيها بين موت لها وبين فداء
لافتداها بخمسة من شيوخ من أساطين هيئة العلماء

وكان المراغى فى ذلك الوقت شيخًا للأزهر ورئيسًا لأساطين هيئة العلماء!! غفر الله لنا ولحافظ إبراهيم!

الغفران

كنا نتحدث عن الشاعر عمر الخيام. هل كان ملحدًا؟ هل كان شاكًا؟ هل كان متصوفًا؟ هل كان عربيدًا؟

وقلت : إن الخيام كان مؤمنًا. . . وفغر الحاضرون أفواههم وقالوا هل يكون مؤمنًا من يناقش الله ويعاتبه. . ويقول له : كيف لا تغفر لى إلا إذا تبت عن ذنبى. . . إنك لست تاجرًا حتى تعطينى غفرانًا مقابل توبة. . ولكنك إله تعطى بلا مقابل !

إن هذا تجديف

قلت : إن هذا التجديف يدل على الإيمان أكثر مما يدل على الإلحاد. فالإيمان بالله هو أن تشعر به.

والخيام يخاطب الله كما لو كان سبحانه وتعالى، كائنًا حيًّا يرضى ويغضب، يقسو ويرحم. . . وهذا شعور عميق نافذ، جارف. بوجود الله.

ربما كان تصور الخيام خاطئًا، ولكن الشعور صحيح، وإذا كان منطق الخيام ضعيفًا أو تافهًا، فإن هذا لا يعنى أنه غير مؤمن، وما أكثر المتصوفين والمنقطعين لعبادة الله الذين خاطبوا ربهم، عاتبين ساخطين، وقد روت الأساطير القديمة أن أيوب، وهو نبى من أنبياء الله، ثار على ما امتحنه الله به، من موت زوجته وأبنائه. وإصابته بالجذام. والبرص

والطاعون... ولما زاره أصدقاؤه من الملائكة والرسل وسمعوا صرخاته فى وجه الله هربوا منه فقال لهم الله لماذا تهربون؟.. لو لم يغضب من قسوق لما استحق رحمتى!

وتطرق الحديث إلى الخيام وهل هو فيلسوف؟

وقلت إن الفيلسوف يجب أن يكون صاحب مذهب، والخيام صاحب خواطر وأفكار وانفعالات، فهو شاعر وليس فيلسوفًا.. ولقد تأثر بأبى نواس وبأبى العلاء المعرى.

وقيل: إن تأثره بأبى العلاء كان أكثر من تأثره بأبى نواس. وأبو العلاء كان فيلسوفًا.

وقلت إن أبا العلاء لم يكن فيلسوفًا لكن كان شاعرًا، وما تصورناه فلسفة ليس إلا تفكيرًا، وتأملا، ولا يمكن أن نعد زهده فى الحياة وعزوفه عنها مذهبًا فلسفيًّا، وإنما هو نظام ربط نفسه به ولم يدع أحدًا إلى انتهاجه.

وفى أثناء ذلك دخل الأستاذ الشيخ الباقورى وقال: عم تتساءلون؟

قلنا: عن النبأ العظيم الذى هم فيه مختلفون.

وقال: أى نبأ.. وأى خلاف؟

قلنا... نبأ الخيام وهل هو ملحد؟ أو هو مذنب؟

وقال الأستاذ الباقورى إن الخطيئة طبيعة فى الإنسان. وعلى الإنسان ألا يجاهر بها، والله يغفر الذنوب لمن يشاء.. وروى هذا الحديث الشريف وهو:

«كل أمتى معافى، إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل المرء بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول: يا فلان: إنى عملت كذا وكذا.. فيبيت يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه».

وروى الأستاذ الباقورى حديثًا قدسيًا هذا نصه:

«عبادى لا تيأسوا من رحمتى إذا أذنبتم، فوعزتى وجلالى لئن لم تذنبوا لخلقت خلقًا غيركم يذنبون، فيستغفرون فأغفر لهم».